

عمرو سعد الدين

شعر محمود درويش في وجدان الثورات العربية

في كلّ مئذنةٍ | حاوٍ ومغتصبٍ
يدعو لأندلسٍ | إن حوصرتْ حلبُ
محمود درويش

تتابع هذه المقالة طرق اقتباس شعر محمود درويش خلال الثورات العربية، لتحاول التعرف إلى جانب من وجدان الثورات وأحلامها وتناقضاتها، عبر طريقة اقتباس هذا الشعر. وتأمل المقالة جوانب سياسية وإنسانية وفلسطينية في الثورات العربية من خلال السير مع هذه الاقتباسات، وتفرد مساحة خاصة لاقتباس درويش في الثورة السورية بسبب كثرة اقتباسه سورياً، على ما تلاحظ المقالة.



رسم غرافيتي للفنان الفرنسي إرنست بيغنون - إرنست

بلا حاجة إلى استعارة، أم إنني أكتب عن
الثورات نفسها التي استعارت درويش؟
تقول "تنسيقية جديدة عرطوز" في سورية

أتساءل بداية: لماذا يخطر في بالي أن
أكتب عن محمود درويش وسط ثورات شعوب
تسطرها كلمات الناس أنفسهم وتضحياتهم

في ٢٢ تموز / يوليو ٢٠١٢:

وهتافاتهما حضر شعراء كثير، بينهم محمود درويش. حضر الشعراء، كما يحلو لكل شخص أن يحضر، وبطريقته، وبعضهم استبدل كلمات من قصيدة الشاعر لتعبّر أكثر عمّا يشعر به، أو بما تستوحيه المناسبة.

قد تكون الشعرية هي في استخدام كلمات تعبّر عن الإحساس الأقرب إلى النفس، في اللحظة عينها وفي موضوعها، فقد يعبر عن ذلك مثلاً، هتاف "الشعب يريد إسقاط النظام"، وهو الشعار الذي أكد ما قالته قصيدة أبي القاسم الشابي: "إذا الشعب يوماً أراد الحياة..." مثل هذه المشاعر المتفائلة فجأة، والخارجة من شعور عميق، تجد أيضاً في الشعر حليفاً ربما يتمكن من التعبير عن النفس الحاملة أو المرهقة أو العاشقة وسط ثورة شعب يتصدى القتل لها.

احتفظ الشعر بمكانته في نفوس العرب خلال الثورات، ويظهر أن السلطات تعرف ذلك أيضاً، هي التي تحاول دوماً التلاعب بمشاعر محكوميهها. فلا يجد مندوب سورية في الأمم المتحدة، بشار الجعفري، غضاضة في بدء خطابه أمام مجلس الأمن الدولي في شباط / فبراير ٢٠١٢ بأبيات من شعر نزار قباني موحياً بجحود العرب، علماً بأن القصيدة التي استشهد بها كانت "مناهضة لأنظمة الطغيان والفساد العربية عموماً، ولحكم حزب البعث بصفة خاصة".^١

عدا الشعرية والوجدان، فإن درويش هو شاعر متفكر، وكان مهتماً عن قرب بالسياسة في مراحل نضالية فلسطينية أساسية، وهو ذو بعد عربي واضح، ومهتم بتجارب الشعوب المضطهدة أو الثائرة حول العالم، فكيف استخدم الثوار العرب الخطاب الدرويشي المتعدد الأبعاد؟

في هذه المقالة التي تجول مع اقتباسات وجدتها لدرويش خلال الثورات العربية، أو بحثت عنها من دون الإحاطة بها كلها طبعاً،

هؤلاء الفدائيون الأبطال الذين يحررون الشام شارعاً شارعاً، صورة صورة، قرية قرية، هم أبناء الفقراء. الفقراء الذين لم يظهروا مرة على التلفزيون ولم يكتبوا شعراً في الوطن ولم يشاركوا في مهرجان للرقص أو مسابقة للغولف! هؤلاء الذين تسميهم النخبة بـ "العامة"، الحرفيون والباعة والطلاب والعمّال والجنود بلا رتب، هؤلاء الذين مات نصفهم في الحرب وسينسحب النصف الآخر بعد الحرب إلى أقصى الصورة: هؤلاء عادة من يصنعون الوطن ويغادرون بهدوء.

ثمة شريحة أخرى من الناس تتهياً الآن بقمصان بيضاء وربطات عنق لتعلن الانتصار والتحرير وتضحك للكاميرات! تلك سنة الأوطان.

طبعاً لست بصدد تمجيد درويش أو الإشارة مجدداً إلى نجومية حققها، وإنما على العكس، فإن ما يستحق الانتباه اليوم هو تعبیر الثوار أنفسهم وعن ذواتهم. فكانت حيرتي التي لازمتني طوال كتابة هذه المقالة التي تردت في نشرها لئلا تبدو أنها نوع من التمجيد لا يحتاج إليه أحد، وخصوصاً أمام تضحيات الناس المجهولين.

أنت بذرة هذه المقالة من ملاحظة مدى الاقتباس الكثيف لدرويش من ناشطين في الثورة السورية، فبدأت أتجول بداية بعفوية بين طرق هذا الاقتباس، ثم خطر ببالي أسئلة: أي نوع من الاقتباسات - التي وجدتها - هي الأكثر استخداماً؟ وماذا يقترح مقتبسوها؟ وماذا تقول الآن هنا؟

في الثورات العربية، حضرت الشعرية والشعر بلغة المتظاهرين البسيطة والمباشرة والصادقة. وفي حواشي شعارات الثورات



ملصق يقتبس مقطع "ثقوا بالماء يا سكان أغنيتي" للدفاع عن ناشط حقوقي بحريني في نيسان/أبريل ٢٠١٢

فإمّا حياة تسرّ الصديق
وإمّا ممات يغيظ العدا
هذا ما حاول أن يقوله جسد محمد
البوعزيزي المحترق. وهذا ما تقوله يافطة
رُفعت في عامودا في سورية في آذار / مارس
٢٠١٢ كتبت عليها: "أقتلني...فكرك كنت عايش
قبل؟؟؟!"

"أنا مَنْ تحفر الأغلال / في جلدي /
شكلاً للوطن...^٣ هي عبارة مقتبسة من
قصيدة قديمة غاضبة لدرويش، وقد ظهرت
هذه العبارة في ملصق مهدى "إلى المعتقلين
في السجون السورية"، بينما يظهر ملصق
آخر للثورة السورية يحوّل هذا الغضب إلى
تحذّر فيؤكد بـ "نعم" أبياتاً لدرويش: "نعم إن
الليل زائل: لا غرفة التوقيف باقية ولا زرد
السلاسل".^٤ والملصق الأخير صار صورة
"بروفائل" لأشخاص عديدين في الفاييس بوك.
وهذا المقطع مقتبس من قصيدة غنتها فرقة
صابرين، وهي تروي حكاية فلسطينية قديمة
وسورية حديثة تقول بدايتها: "وضعوا في
فمه السلاسل / ربطوا يديه بصخرة الموتى، /
وقالوا: أنت قاتل!"^٥
إنه إحساس تعمّم في عرب ضاقوا ذرعاً
بقمعهم، وبوقوعات تأسرهم صراحة أو

أو استمعت إليها في لقاءات عفوية بصورة
عامة، محاولة للتعرف إلى جانب من وجدان
الثورات وأحلامها، والدخول في تناقضات
العمل الثوري، وذلك أساساً عبر طريقة اقتباس
الناس لشعر درويش، وإن كان هذا الجانب، أي
اقتباس درويش، محدوداً أمام تعبيرات أهم
وأوسع وسط العمل الثوري.

أطياف الشاعر في الثورات العربية

بعد نحو ٥٠ يوماً من إضراب الناشط
الحقوق البحريني عبد الهادي الخواجه عن
الطعام، خرج ملصق ضمن حملة واسعة
للإفراج عنه يقول: "ثقوا بالماء يا سكان
أغنيتي". وهي عبارة من قصيدة لدرويش
بعنوان: "لي حكمة المحكوم بالإعدام"^٦، والتي
يقول فيها: "لا أشياء أملكها لتملكني"، كأن هذا
الصوت البحريني المضرب عن الطعام، والحالم
بالحرية والكرامة، يعبر عن مدى ما وصلت إليه
نفوس عربية من حكمة متمردة لمن لم يعودوا
يملكون شيئاً يخسرونه في أوطانهم، فيثقون
بحياة أخرى متدفقة يرمز الماء إليها، أو كما
قال الشاعر عبد الرحيم محمود قبل أن يُستشهد
في سنة ١٩٤٨:

في قصائد عديدة، كان يملك أيضاً مسافته النقدية من النظام. ولذا، ليس من المستغرب أن يكون جرى الاقتباس من درويش كثيراً خلال الثورة السورية.

في شعر درويش تحضر المدن العربية مثل القاهرة وتونس وغيرها، وتحضر الشام كمدينة وقصص، وتكرر حباً، وهي ضلوعه التي يتهاها "دال. ميم. شين. قاف"، وهي "المستحيل"، وتصير أنثى، أو "يا امرأة لونها الزبد العربي الحزين"، وهي "الطريق" و"مفترق الرسل الحائرين أمام الرمادي"^٤. وتحضر "دمشق العرب" ويناجيها الشاعر "ليولد في الزمن العربي نهار"، ويقول: "لولا الشام، وفي الشام / يبتدىء الزمن العربي وينطفئ الزمن الهمجي".

صحيح أن هذه المقالة لا تتعلق بكيف يرى درويش الشام، وإنما على العكس من ذلك، تجول بعفوية مع طرق اقتباس درويش، إلا أنه من الواضح أن درويش نظر إلى سورية من داخلها، كما أنه نظر إليها كأمل عربي.

جرى اقتباس قصائد درويش عن سورية خلال الثورة في محاولة لتحميلها معاني حاضرة يبدو أن شعر درويش عن الشام قادر على حملها بسهولة. مثلاً، اقتبست مقاطع من قصيدته "في الشام": "في الشام، أعرف من أنا وسط الزحام. / يدُلني قَمَرٌ تَلالُ في يد امرأة... عليّ. / يدلني حَجَرٌ تَوَضَّأ في دموع الياسمين / ثم نام. يدلني بَرَدِي الفقير كغيمة / مكسورة. ويدُلني شِعْرٌ فُروسيّ عليّ: / هناك عند نهاية النفق الطويل مُحَاصِرٌ / مثلي سيوقد شمعة، من جرحه، لتراه / ينفُض عن عباءته الظلام. تدلني رِيحانة / أرخت جدائلها على الموتى ودقات الرخام. / هنا يكون الموتُ حباً نائماً [...]". وفي قصيدة "طوق الحمامة الدمشقي" يجري اقتباس: "في دمشق / يرق الكلام / فأسمع صوت دم في عروق الرخام / اختطفني من

ضمناً، تعزلهم عن التواصل مع محيطهم ومجتمعاتهم، وعن تدفق الحياة في نفوسهم، وتمنعهم من تحقيق ذواتهم. و"القوقعة" اسم رواية لمصطفى خليفة عن تجربة السجن في سورية. واحدة من العبارات التي جرى الاستشهاد بها خلال الثورتين المصرية والسورية هي: "سقط القناع... حاصر حصارك"، فهي ملأى بهذا الغضب، بل الأهم من ذلك أنها تدعو بغضب وعنف إلى التخلص من "القناع" المفروض على الإنسان ليحقق حريته في معركة وجود، إذ تقول قصيدة درويش: "حاصر حصارك.. لا مفر / سقطت ذراعك فالتقطها / واضرب عدوك.. لا مفر / وسقطت قربك، فالتقطني / واضرب عدوك بي.. / فأنت الآن حرٌ / وحرٌّ / وحرٌّ... [....]" حاصر حصارك بالجنون / وبالجنون / وبالجنون / نهب الذين تحبهم، ذهبوا / فيما أن تكون / أو لا تكون".^٦ وهذا جانب أساسي مقتبس من شعر درويش الذي كان نُظم خلال وبعيد الاجتياح الإسرائيلي لبيروت في سنة ١٩٨٢.

هذا القمع والعزل المعمم في المجتمعات، أو الاغتراب عن النفس، أو النفي، أمور كلها وصلت إلى مرحلة الثورة من الداخل، فارتفعت يافطة في الزيداني بريف دمشق بمناسبة عيد الفصح الأخير تستعير مقطعاً مسيحياً من درويش: "سنصير يوماً ما نريد... الشعب قام... حقا قام"^٧.

أطياف لدرويش في الثورة السورية

مع الغضب والألم والأمل، أبدعت الثورة السورية بذاتيها وبمشاعر المتظاهرين، وغنائهم، وياقظاتهم، وإصرارهم، ورواياتهم. يبدو أن سورية هي الأكثر استشهاداً بدرويش في الثورات العربية. ودرويش الذي عبّر في شعره عن حبّ سورية والشام وبردى

في وسعه أن يتجنب هذا الاستدراج. ولكنه أصغى إلى طنين الابتزاز [.....] وهو الذي يدرك، أكثر منّا، أن اشتراك أطراف عربية في العملية الأميركية - الإسرائيلية، الهادفة إلى التخلص من الجسد الفلسطيني، ومن الفكرة الفلسطينية، لم يعد يشكل عامل إحراج لهذه العروبة المشغولة من الانتقام من بطولة بيروت، والمشغولة بشراء أمنها الداخلي بأي ثمن - والدم الفلسطيني عندها أقل تكلفة من الماء والمشغولة بتحسين شروط عضويتها في نادي واشنطن العربي غير المحدود الضمان [.....].

كان يضع جثته في أحضان الطاغية،
كان يقترب منه، كان يلامسه، كان يعانقه.
[.....]

وتناقلت صفحات الفاييس بوك السورية في آذار / مارس ٢٠١٢ رواية اللقاء الذي جرى بين درويش والرئيس السابق حافظ الأسد، حين أراد الأخير دعوة درويش إلى الإقامة بالشام بما يحمله من رمزية، بعدما شاع خبر خلافه مع عرفات، الأمر الذي حدا درويش على التوجه مباشرة إلى تونس لمصالحة عرفات.^{١١}

وتحمل موضوعات الذاكرة هذه عدة معانٍ للوطنية، بل إن درويش وشعره لم يجدا نفسيهما غريبين عن وطنية سورية تعيد بناء نفسها من جديد. ويحضر درويش في الجدل بشأن معنى "الوطنية" المرادفة لمعنى مقاومة الاحتلال الإسرائيلي مثلاً، أو في أسئلة "الوطنية السورية" بالعلاقة مع امتدادات لها خارج سورية، أو كنفية للوطنية.

في الجانب "الوطني" المتعلق بدعم فلسطين ومقاومة إسرائيل مثلاً، ظلت الثورة السورية، ومن دون حتى رؤية تنوع أطيافها، محلّ تشكيك في "وطنيتها" من جانب البعض لفترة طويلة. ولذا عادت الذاكرة إلى تواريخ محددة، مقتبسة من درويش، لتجادل بأن النظام

اسمي / تقول السجينة لي أو تحجر معي". ومن المقاطع المقتبسة عن قصيدة "طريق دمشق": "من الأزرق ابتداءً البحر.. / هذا النهار يعود من الأبيض السابق.. / الآن جئت من الأحمر اللاحق.. / اغتسلي يا دمشق بلوني / ليولد في الزمن العربي نهار. / [.....] دمشق، ارتدتني يداك، دمشق! ارتديت يديك، / كأن الخريطة صوت يفترخ في الصخر [.....] كوني دمشق / فلا يعبرون!"^٩

يبدو أن درويش استمرار لذاكرة فلسطينية تعتبر نفسها في أحد الأبعاد امتداداً لسورية، وليس ذلك نافراً عن سياق تاريخي عام، إذ اعتبر المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول في سنة ١٩١٩، على سبيل المثال، في بنده الأول، فلسطين جزءاً من سورية.

خلال الثورة السورية، استعادت الذاكرة حضورها. وأكثر ما تجلى ذلك في كسر المحذور عبر استذكار مجزرة حماة الكبرى في شباط / فبراير ١٩٨٢، وتفصيلات مروعة فيها، فجرى استحضار درويش أيضاً كذاكرة للصراع ضد الحصار والمجازر، وكانت مجزرة تل الزعتر أول حصار للنظام.

يستذكر روائي سوري خلال الثورة الحالية اختفاء العدد ١٠ من مجلة "الكرمل" من سورية ولبنان. فقد كتب درويش في ذلك العدد من "الكرمل"، مقالة فيها نوع من عتب على رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات بعد عودته إلى طرابلس، شمال لبنان، ليجد النظام السوري يحاصره بعد الحصار الإسرائيلي لبيروت، وبعد أشهر من محاصرة قوات النظام السوري لمدينة حماة. تعود هذه الذاكرة السورية إلى ذاك الوقت، تستذكر لحظات دقيقة من تاريخها ومن التاريخ الفلسطيني عبر عنها درويش في قوله:^{١٠}

لم أخف اعتراضي، العاطفي والسياسي،
على رحلته البحرية إلى طرابلس، إذ كان

بركات، وذلك بعد عام من احتجاجات سورية كردية في سنة ٢٠٠٤ على القمع والتمييز. قائلاً: "هذه القصيدة لدفع حالة الحوار العربي الكردي ضمن إطار الهوية السورية الموحدة."^{١٣} أمّا في الجانب "الوطني" في العلاقة مع الطائفية، فينقل سوري عن شاب امتلك شكوكه في بدايات الثورة السورية بشأن وطنية الثورة، كنفويض للطائفية، إحساسه بالاطمئنان لدى توجهه إلى حماة، في صيف العام الماضي، يوم كانت ساحة العاصي نهراً من المتظاهرين، ليجد يافطة كبيرة عليها أبيات شعر لدرويش. وبعد عام رفع شاب من "تنسيقية سلمية - لجان التنسيق المحلية" في ٩ حزيران / يونيو ٢٠١٢ يافطة كتب عليها: "كل قلوب الناس جنسيتي فلتسقطوا عني هلعكم من الطائفية". فدرويش يُستخدم تكراراً في الدفاع عن وطنية الثورة السورية، بأحاديث شفوية أو بكتابات. وتنقل مدونة عن فلسطيني مشارك في الثورة السورية، استشهداً بدرويش دفاعاً عن الوطنية السورية الجامعة:^{١٤}

مثلما ليس عند الفلسطينيين طائفية متجذرة، فالحال مشابه عند السوريين [...]. في أخطاء وردود فعل طبعاً، هذا قانون في الفيزياء مع نظام يستخدم الطائفية والقتل في نفس الطلقة، لعقود ولمجازر كبرى قديمة وجديدة، وهو ليس اكتشافاً خارقاً جديداً، وستحلّه قوانين الكيمياء التي تجمع الشعب السوري.. ومعادلة "واحد واحد واحد" بعدها قائمة وحلّالة مشاكل.

[...] تذكرت نص درويش في حوار بين أنا درويش وأناه الأخرى [في كتابه] "في حضرة الغياب":

[.....]

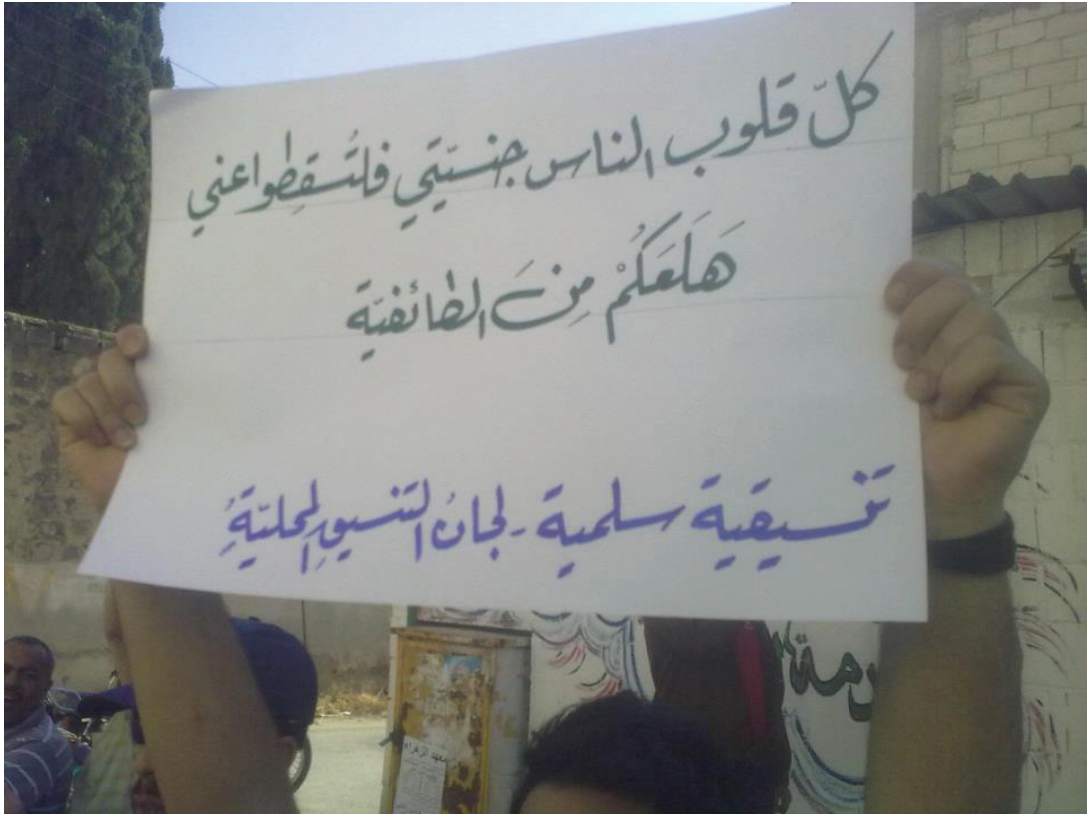
فلا تسخر من نفسك إن كنت عاجزاً عن البرهان، الهواء هو الهواء ولا يحتاج إلى وثيقة دم [...].

مشكك فيه في هذه الناحية (كما اقتبست في الأعلى). ولا تشفع مثلاً، كثرة الهتافات الشعبية الجماعية في التظاهرات عن الجولان (مثل "بائع الجولان")، كما الشعارات الفردية (مثل "الجولان المنطقة الوحيدة الآمنة في سورية"، "إذا كان الهتاف ضدك هو شرط إرسال الجيش ضد العصابات الصهيونية المسلحة في الجولان.. فسنفعل"، وغيرها كثير) لوطنية الثورة السورية في اتهامات مطلقة تجاهها تتعدى النقد والتمييز.

تقول شابة لبنانية: "أبحث عن قصيدة: كم كنت وحدك يا ابن امي. تذكرت درويش لأن الشعب السوري متروك لوحده. أتذكره كثيراً خلال الثورة السورية مع أنه فلسطيني."^{١٥} كما يظهر هذا المقطع "يا ابن امي" كعنوان لـ "يوتوب" بشأن "إضراب الكرامة" في سورية. إنه جزء من شعور سوريين بأنهم وحدهم طوال الوقت، بل إن ثورتهم متهمه ومشكك فيها وفي وطنيتها حتى في فترة ذروة سلميتها، وقبل تشكّل أي من مجالسها السياسية والعسكرية، وقبل أن يفتح جدل الدعم الخارجي.

في جانب آخر من الوطنية السورية التي تعيد تجديد نفسها خلال الثورة، تظهر ثقافة سورية منفتحة بصورة عامة، وتحضر فيها الأبعاد الشامية - الفلسطينية والعربية، فلا يجد مقتبسون سوريون لدرويش غرابية في استدعاء المنفى الفلسطيني كي يكون رافداً رمزياً لهذه الوطنية. فثمة من يعدّ درويش "شامياً"، بما تحمله كلمة شام نفسها من أفق رحب يتخطى حدوداً ثابتة، فتكون الشام دمشق وتصير بلاد الشام وتمتد إلى بر الشام، وبحر الشام كأحد تسميات البحر الأبيض المتوسط القديمة.

لدى دعوة درويش لزيارة دمشق في سنة ٢٠٠٥، لم يجد نفسه غريباً عن المسرح الدمشقي، فأهدى قصيدة "ليس للكردي إلا الريح" للشاعر والروائي السوري الكردي سليم



٩ حزيران/يونيو ٢٠١٢

العنف.^{١٥} وفي هذه القصيدة التي تقول "حاصر حصارك"، صدى سوري لضرورة نجاح الثورة داخلياً أولاً مهما تستفد من دعم خارجي وتناقضات دولية كما هي حال ثورات كثيرة. فالنظام يستمد جزءاً أساسياً من قوته من دعم عسكري وسياسي ودبلوماسي دولي وإقليمي. فدرويش الإنساني، الذي لا يستبعد ضرورة فهم العدو، وإنما يجادل الجندي إنسانياً، لم يأخذ يوماً موقفاً مطلقاً ضد العنف في الثورة. فهو ابن التجربة النضالية الفلسطينية التي مرّت بتجارب عديدة، بعضها مسلح، والآخر اعتمد أساليب سلمية وأقل عنفية، وكثير منها زواج بين أساليب متنوعة، وكان يتحسس ما تستلزمه كل مرحلة بطرقها.

فضلاً عن ذلك، يدخل شعر درويش في نقاشات ساخنة تتعلق بالثورة السورية، بشأن سلميتها وعسكرتها، بين اعتمادها على نفسها أساساً في مقابل طلب دعم خارجي. ويدور جدل بين سوريين على عبارة درويش "حاصر حصارك لا مفر.."، وهي من قصيدة تقول: "لا أخوة لك يا أخي / لا أصدقاء / يا صديقي، لا قلاع / لا الماء عندك، لا الدواء ولا السماء ولا الدماء ولا الشراع / ولا الأمام ولا الورا / حاصر حصارك.. لا مفر"، وهي تدعو إلى العنف في تمزيق القناع. هذا العنف الثوري الذي يمزق القناع يماثل خطاباً لفرانتز فانون صاحب كتاب "معدّبو الأرض" عن العنف الضروري، على الرغم من إدراك فانون الآثار السلبية لهذا

الثورة، وبين خطابات مؤدلجة مسبقاً. لهذا، وفي مرحلة ما، قال شعار موقع من "أحرار مدينة السلمية" (٢٧/٤/٢٠١٢) يُظهر الإصرار على انتزاع الحرية بأي ثمن وبأي طريقة: "بفيتو وبلا فيتو.. بدبابات وبلا دبابات / بمراقبين وبلا مراقبين / شتتم أم أبيتم / فنحن نبني وطناً لكل السوريين". وسرعان ما ظهرت شعارات جديدة مع بدء "معركة دمشق" في تموز / يوليو ٢٠١٢، ربما من أكثرها تعبيراً عن وجدان عام في تلك الفترة: "بلا فيتو بلا نيتو، نحنا نجيبو من بيتو"، والتي ترافقت مع تصريحات مماثلة لعسكريين سوريين منشقين باتوا يؤكّدون فيها أن الشعب السوري هو "مَن سيقلع الشوك بيده" على الرغم من الحاجة دوماً إلى دعم خارجي ما.

وجدان كلمات درويش متجذر في الثورة السورية، بل إن ذلك وجد صدق له في تظاهرة فنية في باريس في آذار / مارس ٢٠١٢ قدم خلالها ١٢ فنانياً من ثماني جنسيات لوحات مستوحاة من شعر درويش ومهداة إلى نضال الشعب السوري.

فلسطين والثورات العربية

درويش، طبعاً، ظلّ حاضراً فلسطينياً، كالمعتاد. وواحدة من أكثر الاستعارات تعبيراً هي رسم غرافيتي لدرويش يقف على عمود بيت فلسطيني مهجور، كأنه "شبح" درويش الذي يحوم في المكان، وهو الشبح الذي التقاه درويش وفتح معه حواراً لدى زيارة قريته المدمرة البروة في الجليل، كما في نص له، أو هو "أنا" درويش الثانية التي امتلأ بها شعره في حوارات بين أنا وأخرى. في تونس، إحدى محطات منافي درويش والفلسطينيين، تستعير مدونة تونسية في ٩ كانون الثاني / يناير ٢٠١٠ مقاطع من

وكتابات درويش عايشت مراحل متعددة من الثورة الفلسطينية وتوازنها الدقيقة وتناقضات ما يحيط بها، وهو عبّر عن حال التخاذل العربي والدولي، كما أنه فهم تناقضات السياسة وسط إصراره على الحق ومبادئه. فلا غرابة في أن يستشهد ثائر سوري بدرويش وهو يعنى العالم الذي تركه وحيداً، فهذه حالة فلسطينية دائمة.

ويظهر من شعارات سورية في الثورة أن همّ الثوار السوريين هو التخلص من النظام بأي وسيلة شرعية، فاعتمدوا السلمية بداية، ثم زاوجوا بين السلمية والعمل المسلح الذي اتسع باطراد. فثمة فارق أساسي بين أن يعمل الثوار بأدوات الواقع، من دون التخلي عن وجدانهم وأهدافهم، وبين خطابات رسمية خليجية مثلاً، كانت تدعو في الأصل إلى استجداء التدخل العسكري الغربي في المنطقة، وترى لنفسها دوراً إقليمياً، وحاولت أن تدفع الثورة السورية في هذا الاتجاه. لكن الثورة السورية أظهرت بصورة عامة أنها تعمل وفقاً لاتجاهاتها الخاصة وسط الوقائع الصعبة والمتقلبة، لا ضمن أيديولوجيا محددة مسبقاً خارج المزاوجة بين المبادئ والسياسة كما في هذه الخطابات الكولونيالية التي ظهرت في وسائل إعلام خليجية دفعت في مرحلة مبكرة في الثورة السورية ولفترة طويلة نحو استجداء تدخل حلف "الناطو" كيفما اتفق في وقت كان الأخير يعلن تكراراً رفضه التدخل، فكان مثل هذه الخطابات خارج السياسة نفسها بما هي إمكانات واقعية. فقد عانت الثورة السورية جزاء خطابين أيديولوجيين عريضين داعمين لها، عدا خطاب "المانعة" الذي يقف ضدها، وحاول كل منهما دفعها في اتجاه محدد مسبقاً، وهما ما يشبه "أيديولوجيا اللاعنف" من جهة، و"أيديولوجيا الناطو" من جهة أخرى.

ثمة فارق أساسي بين عيش تناقضات

قصيدة لدرويش يريد التونسي أن يعبر فيها عن حبه لبلده: "كيف نشفى من حب تونس": (...). كيف نشفى من حب تونس الذي فينا مجرى النفس [...] فهل نقول لك شكراً / لم أسمع عاشقين يقولان شكراً / ولكن شكراً لك لأنك أنت من أنت / حافظي على نفسك يا تونس / سنلتقي غداً على أرض أختك فلسطين^{١٦}. وقد أعيد اقتباس القصيدة نفسها، لكن في مقطع مصور في "اليوتيوب" يبكي فيه درويش تأثراً لدى إلقاء قصيدته، وقد جاء هذا المقطع عندما لم تمنح وزارة الداخلية التونسية تأشيرات دخول للمدونين الفلسطينيين في لقاء المدونين العرب في تونس في تشرين الأول / أكتوبر ٢٠١١، الأمر الذي أثار احتجاج المدونين التونسيين والعرب في الاجتماع.

في البحرين، تقول ناشطة بحرينية تعرضت للاعتقال والتعذيب: "فلسطين حاضرة بعفوية في الثورة البحرينية. انظر شعارات حق تقرير المصير وحق العودة.. إلى الميدان مثلاً، التي صارت شعارات أساسية في الثورة. فلسطين في قلب هذه الشعارات." وفعالاً، فإن هذه الشعارات التي صارت أسماء جُمع، باتت تملأ كجغرافيتي جدران البلدات البحرينية الثائرة. ولدى إضراب الخواجة عن الطعام، والذي خرج خلاله ملصق: "تقوا بالماء يا سكان أغنيتي"، أنشئت صفحة فايس بوك مشتركة تعبر عن دعم إضراب الأسرى البحرينيين والفلسطينيين عن الطعام. وتكاملت الحالة عندما خرجت الملصقات البنية اللون الداعمة لإضراب الأسرى الفلسطينيين، فتوالت الملصقات السورية من صفحة "الثورة السورية ضد بشار الأسد" و"الشعب السوري عارف طريقه" و"مغسل ومشحم حمص الدولي للدبابات" (صفحة ساخرة)، على سبيل المثال، بتصاميم تُظهر تماهي ثوار سوريين مع إضراب الأسرى

الفلسطينيين.

في التعبير عما سبق، تجسدت استعارة درويش بين فلسطين وسورية في الوقت ذاته. ففي أثناء القصف الإسرائيلي على قطاع غزة، في ١٢ آذار / مارس الماضي، اقتبست اللبنانية ديالا مقطعاً شعرياً من ديوان لمحمود درويش، "العصافير تموت في الجليل"، ووضعت في صفحتها في الفايس بوك:

"وطني جبل غسيل لمناديل الدم المسفوك في كل دقيقة"^{١٧}، وأضافت "من كرم الزيتون إلى غزة...". وفي ذاك اليوم، خرجت أنباء مجزرة في حمص في آذار / مارس ٢٠١١، وقد بث عنها ناشطون صوراً فظيعة لأولاد مذبحين والدماء والبول على ثيابهم.

ينقل علي ملحم الذي اعتقل وقت الثورة، ما رآه على جدار سجن استبدل فيه حصار بيروت في سنة ١٩٨٢ بحصار حمص خلال الثورة بعنوان "من مذكرات معتقل"^{١٨} وكتب المعتقلون في سجن مطار المزة على الجدار بقصدير علب اللبنة حيث ساحة حمص التي اشتهرت بساعتها: حمص تفاحة / والقلب لا يضحك / وحصارنا واحة / في عالم يهلك / سرقص الساحة / ونزوح الليلك / حمص خيمتنا"^{١٩}.

يأتي هذا الاقتباس المتعدد لدرويش، في البعد الفلسطيني - العربي، وسط جدل بشأن مكانة فلسطين في الثورات العربية، بل دورها فيها أيضاً، إذ سارع بعض المعلقين، عرباً وغربيين من المعادين للقضية الفلسطينية، إلى الجدل مبكراً بأن فلسطين غائبة عن الثورات العربية. وفي المقابل، يقترح أكثر من بحث عن الحركات الاجتماعية في مصر في العقد الأخير، أن الانتفاضة الفلسطينية الثانية التي عايشها الجيل العربي الشاب، والاعتصامات الداعمة لها في مصر، كانت من مؤشرات حراك مصري يستعيد زخمه في مطلع الألفية^{٢٠}. ولا يتناقض هذا الكلام مع

يُظهر ما سبق أن شعر درويش، بما يرمز إليه فلسطينياً وثورياً، حاضر بشدة في وجدان الحالة الثورية العربية. لكن علينا ألا نتوقع ترجمة عملية وسريعة لذلك وسط انشغال الثورات بالتخلص من أنظمتها الديكتاتورية، ووسط تناقضاتها الكثيرة، بل إنه كان أقرب إلى المفاجأة أن تقتحم السفارة الإسرائيلية في القاهرة بمثل هذه السرعة في تشرين الأول / أكتوبر ٢٠١١. صحيح أن أنظمة ما بعد الثورات تعيش التناقضات وتخرج منها تصريحات تريد طمأنة الدول الغربية بشأن فلسطين، إلا إنها باتت أنظمة تخضع لطريق المساءلة الشعبية.

ومثلما أظهرت أبحاث تأثر الجيل المصري الشاب بالانتفاضة الفلسطينية الثانية، فإن الناشطين السوريين تأثروا أيضاً بالانتفاضة الفلسطينية الثانية. يقول أحدهم ممن شهد أمسيات بيتية لمنفيين سوريين في بيروت وعمان كان درويش حاضراً فيها شعراً وغناء، إنه في بداية الانتفاضة الثانية اعتصم طلاب كليته في دمشق وأضربوا فأغلقوا كليتهم، الأمر الذي أدى إلى اعتقالات في صفوف الطلاب، علماً بأن الموضوع كان دعماً للانتفاضة الفلسطينية الثانية لا شأنًا داخلياً. يقول ناشط سوري آخر (في لقاء عفوي) إن الانتفاضة الفلسطينية الثانية مثلت للجيل السوري الشاب أهم التجارب الثورية بالنسبة إليه. ويقول الناشط إنه بسبب ذلك تساءل هذا الجيل عن مواقف "حماس"، وخصوصاً في بداية الثورة السورية، فأصيب بالإحباط والإحساس بالخذلان.

ما تحمله تساؤلات وملاحظات هؤلاء الناشطين يجد جوابه في تكلُّس الحركات الفلسطينية على المستوى الفلسطيني نفسه، فما بالناس بمواقفها العربية؟! الأجوبة المتعددة جاءت من أوساط أساسية في الحراك الشبابي الفلسطيني المستقل والمتنوع داخل

القول إن "الحالة الثورية" في البلاد العربية هي قريبة من فلسطين، بينما الأسئلة تبقى مفتوحة من ناحية حركات سياسية تحمل تناقضات اللحظة، أو "انتهازية" سياسية تتعلق أساساً بسعي حركات للوصول إلى الحكم بغض النظر عن المبادئ. والفلسطينيون يجدون أنفسهم اليوم أمام سؤال التضامن مع الثورات العربية ودعمها، وقد توجهت رابطة الكتاب السوريين، التي تأسست خلال الثورة، إلى الفلسطينيين تحديداً، والعرب عامة، ببناء لدعم الثورة السورية، فوق مئة كاتب وأديب فلسطيني - وفعل مثلهم لبنانيون ومصريون وتونسيون - بياناً يعلنون فيه دعمهم للثورة، ويطلبون انتساباً جماعياً إلى رابطة الكتاب السوريين، فردّ عليهم نوري الجراح أحد مؤسسي رابطة الكتاب السورية قائلاً: "نحن نؤمن أن دمنا واحد. لقد خاطب شعبنا الثائر حكاهم القتلة بكلمات شاعركم العظيم محمود درويش: أخذوا حصتكم من دمنا وانصرفوا".^{٢١} وعدا الاعتصامات الفلسطينية المتكررة في المدن الفلسطينية مع الثورة السورية، وبيانين بارزين لكتاب ومتقنين فلسطينيين تضامنا مع الثورة، وإن نأى آخرون عن ذلك مثلما نأى مثقفون سوريون عن ذلك مشككين في الثورة وأهدافها، فإن التلاحم الفلسطيني مع الثورة السورية جاء من الداخل بمشاركة شباب فلسطينيين في سورية في فاعليات متنوعة من الثورة، فسقط منهم عشرات القتلى واعتقل العشرات، وتكثف ذلك لدى انطلاق شرارة "معركة دمشق" في تموز / يوليو ٢٠١٢ بتظاهرة حاشدة في مخيم فلسطين واليرموك المتلاصقين واللذين يشكلان امتداداً لأحياء التضامن والميدان والحجر الأسود والقدم الثائرة. وخرج حينها ملصق سوري، في ١٤ تموز / يوليو ٢٠١٢، يقتبس من درويش قائلاً "حين يبتسم المخيم تعبس المدن الكبيرة".^{٢٢}

متمثلة في الحرية والكرامة والعدالة وغيرها من مطالب كثيرة. والشعر، الذي يعكس الواقع ويتجاوزُه، فيه كثير من هذه الأبعاد الإنسانية، وهو ما عبّر عنه مثلاً شعار من قرية كفر نبل التي باتت شهيرة بعد الثورة السورية: "ثورتنا هادفة تحمل قيماً إنسانية وليست للانتقام"، أو آخر خرج من كفر سوسة في دمشق: "الفرق بين النظام والثورة هو كالفرق بين الانتقام والعدل".

وأدت العلاقة بين الإنساني والسياسي دوراً كبيراً في النقاشات المرتبطة بالثورة، ومثّل هذا النقاش بين "السياسي" والإنساني / الأخلاقي معلماً من معالم الثورات العربية. لقد حققت البلاد العربية استقلالها الأول بعد ثورات واحتجاجات شعبية على الاستعمار لترتمي في أحضان ديكتاتوريات عسكرية، كما شابت الثورة الفلسطينية، على كبر حلمها وجسامتها تضحياتها، مظاهر لإنسانية تفضي إلى ممارسات ونتائج بائسة مقارنة بأهداف الثورة وتضحياتها الكبيرة. ولن تكون الثورات العربية الحالية بمنأى عن هذا النقاش المستجد في السعي للانسجام بين أهداف الثورات وطريقها، وبين التحرر من الديكتاتورية والدفع بالمعاني والأهداف التحررية الإنسانية.

إن تداخل السياسي مع الإنساني هو أحد التحديات الأساسية، وهو ما يمكن أن يتجلى في الشعر أيضاً، مثلما هي الحال في أشعار محمود درويش المقتبسة. ففي ملصق جمعية "إغاثة ناو"، وفي تقرير لها عن ضاحية دوما في دمشق، يظهر عنوان الملصق: "فكر بغيرك.."، في إشارة ضمنية إلى ضرورة الإحساس بفداحة ما يعانیه السوريون إنسانياً، وهي مقتبسة من قصيدة لدرويش تقول نهايتها: "وأنت تحرّر نفسك بالاستعارات، ففكر بغيرك / مَنْ فقدوا حقهم في الكلام / وأنت تفكر بالآخرين البعيدين،

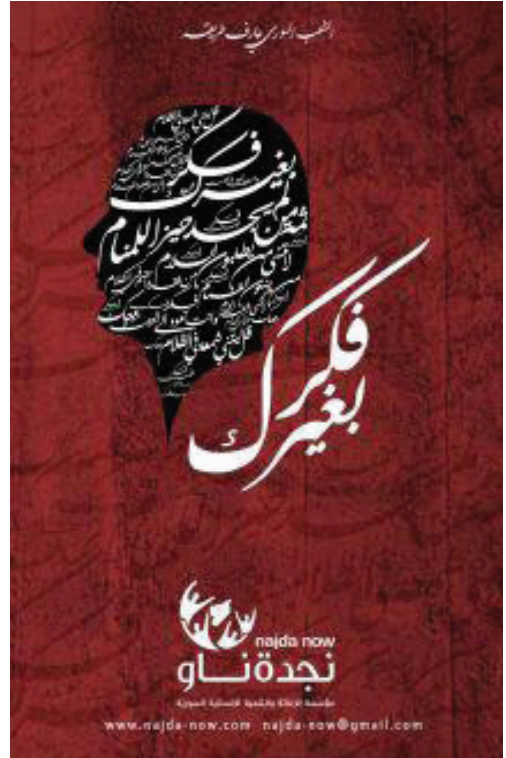
فلسطين، إذ نُظمت عشرات الاعتصامات في رام الله وحيفا والناصرة ونابلس وغيرها دعماً للثورة السورية، وبعضها وصل إلى آلاف المعتصمين، في مقابل تحرك داعم للنظام ضمناً في حيفا أثار إشكالاً وشجاراً في "مسرح الميدان" في حيفا في شباط / فبراير الماضي، واعتصامات صغيرة داعمة للنظام. لكن الحراك الشبابي الفلسطيني الجديد ظلّ ضعيفاً مقارنة بالحركات الفلسطينية التاريخية. ثم جاءت الإجابة الأبرز من انخراط أوساط أساسية من شباب فلسطينيين سوريين في أنشطة متنوعة في الثورة السورية،^{٢٣} في مقابل وسط شبابي محدود الحجم في سورية دعم النظام إلى جانب تنظيمات فلسطينية مقربة من النظام تاريخياً. وفي هذا السياق، ظلّ درويش، الذي احتفظ لنفسه بمكان خارج تردي القوى السياسية الفلسطينية، شاباً قريباً من أصوات فلسطينية شابة، وظلّ في حضرة الثورة، ومثّل بالنسبة إلى سوريين كثر ضميراً فلسطينياً. يقتبس أحدهم من درويش لدى اعتقال الكاتب الفلسطيني السوري سلامة كيلة في دمشق: "يا دامي العينين والكفّين إن الليل زائل". وقد كشف كيلة بعد سجنه وتعذيبه وإبعاده عن سورية أن المحققين شتموا الشعب الفلسطيني، وقال كيلة: "وفي النشرة [التي أتهم كيلة بمسؤوليتها عنها] شعار من أجل تحرير فلسطين.. نريد إسقاط النظام، وهو الشعار الذي ضربت عليه طويلاً حتى من العناصر، ووجدت أنهم مرعوبون منه".^{٢٤}

درويش الإنساني والعاشق في الثورات العربية

قد يكون الانطلاق من الإنساني هو الأعمق في معارضة سلطة ما، كما أن للثورات العربية أهدافها الإنسانية الأساسية

ما يوحي بنقد أخطاء في الثورة. فدرويش حمل بعداً إنسانياً كبيراً، غير أنه لم يركز على نقد ممارسات الثورة، وإن ظلت هذه الأفكار حاضرة في كتاباته، وربما يكون هذا سبباً في ألا أجد اقتباسات له في هذا الجانب النقدي للثورة.

في الجانب الإنساني المتعلق بالحب، يصف عاشق سوري أثر ثقل الأجواء خلال الثورة في علاقته بحبيبته، الأمر الذي ساهم في انفصالهما، وكم أن هذا النظام يدمر الحب. يروي كيف كان يجلس إلى جانب حبيبته مرة في الجامعة ومرة في حديقة عامة، قبل أكثر من عامين، ففاجأهما عناصر أمن النظام بغتة، بزיהم المدني، وأخضعاهما لتحقيقين مرهقين وطويلين يتعلقان بالـ "آداب"، مع أنهما كانا يتسامران لا أكثر، وذلك طمعاً من جانب عناصر الأمن بالنقود، مستغلين سلطة ممنوحة لا رقيب عليها. وبعد جلسة تحقيق امتدت ساعتين داخل حرم الجامعة جعلهما عنصر الأمن يكتبان "اعترافاتهما" على ورقة، وبعدما تبين للعاشق أن الأمر يتعلق بالنقود، قال: "صدمت. لو أنه فعل ذلك اعتقاداً منه بمبدأ يتعلق بالآداب، لفهمت، أما أن يرهبنا، وبتنسيق مع ضابط مقيم في الجامعة، من أجل النقود، فقد أصابتنني حالة ذهول!". وفي المقابل، تُوِّع ورقة باسم "تجمع العشاق الأحرار - دمشق - الميدان المحتلة - ٢٠١٢/٥/٢" مرفوعة وسط تظاهرة تقول: "لا عليك يا حبيبتي، قلوبهم خشنة لم يحكها الحب بعد!" وتكتب آية تعليقاً في الفايس بوك: "الحب في زمن الثورة ليس ترفاً بل جهاداً.. أن يتزوج شاب وصبية في مدرسة للاجئين في حلب، يعني أن الحياة ناطرتنا على الناصية ولن تستسلم.. أن يغرم شاب بصبية في مظاهرة يعني أن الحب سيسقط الاستبداد.... أن تكتب له: كن أسمح لك بالموت فأنا أحبك... يعني أنه سيهزم القذيفة... ليست رومانسية



اقتباس "فكر بغيرك" في حملة إغاثة في سورية

فكر بنفسك / قُلْ: ليتني شمعة في الظلام^{٢٥}. ويمكن الحديث عن "مودة" في المجتمع السوري قُلْ نظيرها، ومن المفارقة أن يتعرض هذا المجتمع لمثل هذه القسوة. ومن المفارقة أن الثورة والمجتمع سيجدان نفسيهما في المستقبل، وربما الآن، أمام امتحان الانفتاح، والتسامح مع المحاسبة، بدلاً من التحديق الملحّ خلال الثورة في ساعة النصر، على ما قال درويش: "بلاد على أهبة الفجر صرنا أقل ذكاءً / لأننا نحملق في ساعة النصر"^{٢٦}. فدرويش الذي عاش تجربة فلسطينية طويلة، تخللتها أكثر من ثورة ومناقب متنقلة، ظلّ مركزاً أنظاره على الهدف الإنساني للثورة، ومدركاً في الوقت ذاته ما يمكن أن تحمله الثورة من استعصاءات. على أن الاقتباسات كلها التي لاحظتها لدرويش لم يكن لإحداها

بل ثورة عاطفية.

أتأمل إرسال حبيب رسالة تليفونية إلى حبيبته في دمشق باقتباس بيت لدرويش: "كتبت عن الحبّ عشرين سطرًا / فحُيّل لي / أن هذا الحصار / تراجع عشرين مترًا..."^{٢٧} كأن المراد من القول، من دون أن يغادر التردد والتوجس، ألاّ تحزني ممّا يجري من قتل يومي، فإننا بالحبّ يمكن أن نستمر، أن نواجه مثل هذا الجنون بمشاعرنا. أو أنه أراد أن يقول شيئاً من وحي ما قاله درويش: "أن تقاوم يعني: التأكد من / صحة القلب والخصيتين، / ومن دائك المتأصل: / داء الأمل"^{٢٨}

لكن التردد يكبر مع معرفة أخبار القتل في ذلك اليوم. فكتب لها مجدداً كأنه يعتذر لدى سماعه الأخبار. ولم يرتح إلاّ عندما ردت عليه برسالة تليفونية من بيتها لتعبر عن مشاعر تلك اللحظة باستيحاء من اقتباس: "هناك وقت للحرب، ووقت للحب. وفي هذا الوقت الدقيق، ينتصر الحب..."

لكن هل يمكن للحب فعلاً أن يتغلب على الفظاعات اليومية وكبت الحرية في تفصيلاتنا اليومية عندما يحتل الأمن الأماكن، و"تسكن الشرطة المدينة" بحسب تعبير المغني مانو تشاو عن الجزائر؟ هل يمكن للحب فعلاً أن يمر بين البنادق، وأن يعيش بلا حرية في "بلاد أضيّق من الحب"؛ اسم مسرحية الكاتب السوري سعد الله ونوس؟

يتساءل شباب من عامودا في منطقة الحسكة في سورية في ٦ نيسان / أبريل الماضي، في يافطة تقتبس من الشاعر لوركا: "ما الإنسان دون الحرية يا ماريانا، كيف سأحبك إذا لم أكن حرّاً، كيف أهبك قلبي إذا لم يكن ملكي؟"

وتقول يافطة موقّعة باسم "تنسيقية شباب حماة" في ٢٠/٨/٢٠١١، في

استعارات تمدّ ما جرى للمغني قاشوش والرسام علي فرزات وما يجري للأطفال وكل شيء ينزع من داخله ويفرغ: "الرسام بلا أصابع والمغني بلا حنجرة والطفل بلا عينين والمسجد بلا مئذنة وورقة النقد بلا رصيد والطائر بلا جناح والقصيدة بلا قلب والرصاص بلا ضمير".

لا جواب عن تساؤل الحبّ وسط قمع مديد للنظام على ما يبدو، بل يظهر أن الأمر أقرب إلى التحدي الصعب.

هكذا يبدو عشاق يخافون على حبه من قمع النظام أيضاً. هم أيضاً من الأكثر عرضة للقمع. إنها مشاعر "شهيذة"، وأصحابها

شهداء، كما كتب نزار قباني: "قد مات شهيداً / من مات على دين المحبوب / فنجانك دنيا مرعبة / وحياتك أسفاً وحروب"^{٢٩}

كتب نزار قباني قصيدته "٢٥ وردة في شَعْر بلقيس"؛ امرأته التي "أمر السلطان - نصره الله على أعدائه"، كما كتب، بقتلها

في بيروت: "أسست معها في ٤ آذار ١٩٦٢ / أول مدرسة للعشق في بغداد / وعندما سقطت بلقيس في ١٥/١٢/١٩٨١ / استقال

المعلمون والمعلمات / وهرب التلاميذ / وتأجلت دراسة الحب.. / إلى أجل غير مسمى..

[....] عندما تموت امرأة جميلة.. / تفقد الكرة الأرضية توازنها / ويعلن القمر الحداد لمئة عام / ويصبح الشعر عاطلاً عن العمل..".

المدن والبلدات السورية بصورة خاصة ظلّت تعيش إيقاع مدهامات، واعتقالات، وانتشار أمني كثيف وحواجز رعب يومي

و"شبيحة"، وفي كثير من المدن قصف وقناصة واشتباكات، وإعدامات ميدانية مؤخراً، ومجازر تكبر. حالة مستمرة بلا

انقطاع منذ نحو عام ونصف عام، ينمو الخوف والقلق والغضب والتمرد، وتختلط في كل زاوية.

أتأمل اختيار التحدي والذهاب في

‘جامع القدس، ومنطقة العروبة. مَنْ يحتاج إلى استعارات؟ مَنْ يبحث عن التشبيه؟’ لذا نجد الشعر الأكثر مباشرة هو الأكثر استخداماً مثل: لا زرد السلاسل باق، حاصر حصارك. يقول جون برغر معلقاً على أعمال الفنانة السورية الجولانية رندا مدّاح: “عندما يكون الهدف من النضال السياسي هو التغيير أو شق مسار جديد، تدعم الممارسة الفنية هذا النضال وهي على مسافة بعيدة خلف خطوط النضال الأمامية. ولكن عندما يكون الهدف السياسي المباشر هو المقاومة يتقدم الفن ويقترب من الخطوط الأمامية.”^{٣٠}

هذا الاستخدام لدرويش هو نقض المسلسل السوري “في حضرة الغياب” عن درويش، الذي خرج خلال الثورة السورية بتمثيل فراس إبراهيم، وهو الذي اتخذ موقفاً ضد الثورة. فما كان يعرضه التلفزيون في مسلسل درويش هو حالات متخيلة ملأى بالاستعارات والابتذال. إنه مثل محاولة استخدام شعر نزار قباني رسمياً، لكن مفرغاً من المعاني، وهو مشابه لبث الراديو الرسمي السوري قصائد درويش عن الشام، خلال الثورة، الملأى باستعارات تحاول أن تفرغ اللغة ممّا تريد قوله.

يصف محسن بوعزيزي لغة الثورة،^{٣١} وخصوصاً في تونس، بأنها لغة مباشرة لا تحتمل كثيراً من الاستعارات، منطوقة في ميدان الفعل، وفي هذا قوتها. ويقول بوعزيزي إن الزحام لم يعد قاحلاً كما قال درويش في “رحلة المتنبي إلى مصر”، وإنما صار ثورياً محملاً بالمعاني والعلاقات المتنوعة. لكنه يقول أيضاً إن الشعارات المرفوعة، الثورية بأفقهها الإنساني المنادي بالحرية والكرامة والعدالة مثلاً، لا يزال مشروعها الجديد “في حضرة الغياب” كما يقول مستشهداً بعنوان كتاب درويش، لأنها ليست كثورات سابقة، بحسب اعتقاده، كان لها كتابها وأحزابها

المجازفة، عدم السماح للنظام بأن يدخل إلى داخل النفس؛ أن يتدخل بين المحبّ وعشقه، فترتفع حالة عشق بين رجل وامرأة، في أحوال اعتيادية، إلى حالة عشق تقاوم النظام وقمعه، وما تتعرض له من قمع وترهيب للمشاعر.

عندما تحضر الثورة ويحضر معها الحب يأتي شعر درويش، فإن ثمة ما يُولد الأمل الجارف.

الثورات التي امتلأت بالغضب امتلأت أيضاً بشاعرية وإبداع كبيرين، ويتواصل جديد، وبحلم بواقع مختلف رأينا تجلياته واضحة في كثير من شعارات الثورة السورية. شباب الأحياء والمدن والقرى يجتمعون في كل اعتصام، يومياً، ليغنوا بعضهم لبعض “سكابا يا دموع العين سكابا”؛ تلك الأغاني المنسوبة إلى إبراهيم قاشوش الحموي، وساروت الحمصي، وغيرها كثير، بل صار لكل حيّ مغنيه، فينشدون أسماء المناطق السورية المتعددة. المناطق تنادي بعضها بعضاً في مشاعر إنسانية ملأى بالتواصل، عكس التوقع المفروض كحالة اعتيادية تاريخية، وعندما تحضر الثورة والغناء، يكون درويش في حضرة الثورة.

بين لغة الثورة التي “تُسقط” وتلك

التي تبني

الثورة بنت لغتها وشعاراتها أساساً. ويظهر أن الاستخدام الأكثر كثافة لشعر درويش هو الأقل استعارة وسط لحظة الفعل. فكلمات الثورة مباشرة، بل فيها أيضاً سباب يحط من قدسية الديكتاتور المتأله، أو كما علّق في الفايس بوك صديق، اعتقل لاحقاً، لدى قصف مخيم اليرموك في ٢٦ تموز / يوليو ٢٠١٢: “الجيش النظامي يقصف ‘مشفى فلسطين، يصيب عيادات دير ياسين، محيط

الإنساني، حتى لو لم يقصده القائمون بالثورة أنفسهم، أو ربما يكون حتى عكس ما يقولونه خلال الثورة، علماً بأن كثيرين في الثورات ينادون بالحرية أساساً، وينادون بالكرامة، وينادون بالعدالة. هكذا كانت حال الثورة الفرنسية وحال كتّابها الذين لم يقصدوا الخروج بالقيم التي عُرفت بها الثورة الفرنسية. إنها عاصفة قد تتجاوز الرغبات الذاتية وسط الثورة، ويصعب لجمها، وهي ستؤسس لثقافة إنسانية جديدة لا يمكن التنبؤ الآن بما يمكن أن تحمله من قيم. ويبقى سؤال ماذا تختلف هذه الثورات عن سابقتها، مفتوحاً، ويظهر الآن أن الثورة "عاصفة وعدتني بنبيذ" كما غنى مرسيل خليفة من شعر درويش.^{٣٢} ولا يمكن الاستعانة بدرويش للإشارة إلى أكثر من ملامح عامة خلال الثورة نفسها، ويصعب الآن تحديد معانٍ للثورة وهي لا تزال في صيرورتها ووسط معركتها. وربما يكون التسرع في أي اتجاه ادعاءً، بما فيه تلك الادعاءات المسارعة إلى نعت الثورات بالخريف والإسلامية والطائفية وغيرها. وأكثر ما يفيدنا درويش، أو تقوله الثورة الآن، هو أنها عاصفة، ونحن في وسطها تماماً.. ولا نعرف إلى أي اتجاه ستذهب. وقد يكون كل ما كتبتة سابقاً محض ادعاءات لا أكثر! ■

التي تكتب الثورة حتى قبل حدوثها. في الثورة السورية التي طالت مقارنة بالثورات الأخرى التي لم يقف فيها الجيش مباشرة في وجه الثورات، أو تلك التي تلقت سناً خارجياً عملياً كما في ليبيا، فإن شعارات كثيرة، فردية وجماعية، رُفعت خلال التظاهرات، كما رُفعت تلك التي اشتُهرت في كل من كفر نبل وبنش وعامودا، وكذلك ملصقات "الشعب السوري عارف طريقه"، كأمثلة قليلة، فهي ملأى أيضاً بثقافة تحاول أن تبني جديداً مقارنة باللغة الثورية التي تريد أن تهدم أسس النظام و"تسقطها" وسط الفعل الثوري، في حين أنها لم تمتلك بعد لا الوقت ولا الأوضاع الملائمة لبناء مشروع سياسي ثقافي جديد يقطع مع كثير من سلطات الماضي، كحال الثورات العربية جميعها، فهي لا تزال "تحاصر حصارها". وفي هذا السياق يجد شعر درويش مكاناً له، بين كلمات كثيرة بحرية وأريحية لا تقدّس، تمدّ عزمًا للحظة الثورية الراهنة من جهة، وتحاول أن تؤسس ثقافة جديدة وسط القتل والحلم من جهة أخرى، ووسط تناقضات كثيرة تعيشها الثورات. الثورات العربية تنتمي إلى قيم إنسانية هي امتداد لثورات العالم كله. ودرويش انطلق من الفلسطينية إلى الإنسانية. فالثورات، كما تضيء لنا حنة أرندت،^{٣٢} تحمل الجديد

المصادر

- ١ صبحي حديدي، "نزار قباني وحشيش الديمقراطية"، "القدس العربي"، (لندن)، ٢٩/٤/٢٠١٢.
 - ٢ محمود درويش، ديوان "لا تعتذر عما فعلت" (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤)، ص ١٧.
 - ٣ محمود درويش، قصيدة "العصافير تموت في الجليل" في ديوان "العصافير تموت في الجليل" (بيروت: دار الآداب، الطبعة الأولى، ١٩٧٠)، ص ٢٢.
 - ٤ محمود درويش، قصيدة "عن إنسان" في ديوان "أوراق الزيتون" (بيروت: دار العودة، عن الطبعة الأولى في حيفا، ١٩٦٤)، ص ٢٥-٢٦.
 - ٥ المصدر نفسه.
 - ٦ محمود درويش، ديوان "مديح الظل العالي" (بيروت: دار العودة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣)، ص ٣٦-٣٨.
 - ٧ يقول درويش: "سأصير يوماً أريد [...] سنكون يوماً ما نريد" في ديوان "جدارية" (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٠)، ص ١٢-١٦.
 - ٨ محمود درويش، قصيدة "طريق دمشق" في ديوان "محاولة رقم ٧" (بيروت: الآداب، الطبعة الأولى، ١٩٧٤)، ص ١٥٣-١٧٥.
 - ٩ المصدر نفسه، ص ١٥٥-١٥٧.
 - ١٠ محمود درويش، "ياسر عرفات... والبحر"، مجلة "الكرمل"، العدد ١٠ (١٩٨٣)، ص ٧-٩.
 - ١١ مقتبسة في الأصل من حسن خضر، "كل عام وأنت بخير يا محمود درويش!!" موقع "الحوار المتمدن"، ٢٠١٢/٣/١٣.
 - ١٢ درويش، ديوان "مديح الظل العالي"، مصدر سبق ذكره، ص ١٦.
 - ١٣ روبري يوسف، "محمود درويش (في حضرة) الدراما السورية"، موقع "الحوار المتمدن"، ٢٠١١/٨/٢٠.
 - ١٤ مدونة "جدران بيروت"، "سنحل ردود فعل الفيزياء بكيمياء الشعب السوري"، ٢٠١٢/٥/٧.
 - ١٥ أعاد ياسر منيف الإشارة إليها في مقابلة مع نايجيل غيبسون في تموز/ يوليو ٢٠١٢، وستُنشر في "مجلة الدراسات الفلسطينية".
 - ١٦ مقتبسة في الأصل من: محمود درويش، ديوان "حيرة العائد" (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٧).
 - ١٧ درويش، ديوان "مديح الظل العالي"، مصدر سبق ذكره.
 - ١٨ في صفحة الفايس بوك لـ "تجمع نبض للشباب المدني السوري"، ٢٠١٢/٢/١٧، وذلك في الموقع الإلكتروني التالي:
- <http://www.facebook.com/nabd.shabab.syria/posts/298970416829417>
- ١٩ كلماتها في الأصل: "بيروت تفاحة... من قصيدة بيروت" في ديوان "حصار لمدايح البحر" (بيروت: دار العودة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥)، ص ١١٢.

٢٠ انظر: يوسف الشاذلي، "مصر والقضية الفلسطينية بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١٢"، ورقة بحثية قُدمت في مؤتمر "الصراع العربي - الإسرائيلي في ضوء المتغيرات العربية والإقليمية"، قبرص، ٢٨-٢٩ نيسان / أبريل ٢٠١٢، وستُنشر في كتاب صادر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ويشير الشاذلي إلى شعارات ميدانية يرصدها خلال الثورة، فضلاً عن اعتماده على مراجع في قوله: "نرى أن القضية الفلسطينية كان لها دور محوري في تسييس عدد من الشباب ابتداءً من عام ٢٠٠٠. في العديد من الدراسات التي تحلل عودة السياسة في العقد السابق، أو ظهور الحركات الاجتماعية الجديدة [...] نجد أن جذور الحراك السياسي ترجع لمظاهرات مساندة الانتفاضة الفلسطينية الثانية." انظر: دينا شحاتة (محرر)، "عودة السياسة" (القاهرة: مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠١٠)؛ فريد زهران، "الحركات الاجتماعية الجديدة" (القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٧).

انظر أيضاً:

Reem Abou-El-Fadl, "The Road to Jerusalem through Tahrir Square: Anti-Zionism and Palestine in the 2011 Egyptian Revolution", *Journal of Palestine Studies*, vol 41, no. 2 (Winter 2012), pp. 6-23; Rabab El-Mahdi and Philip Marfleet (eds.), *Egypt: The Moment of Change* (London: Zed Books, 2009).

- ٢١ موقع "عرب ٤٨" الإلكتروني، ٢٠١٢/٢/٩.
- ٢٢ تناقلت عمل رامي عباس صفحات فايس بوك في الثورة السورية.
- ٢٣ غسان محمد، "الحراك الشبابي الفلسطيني في سورية: مهام صعبة وآمال"، مجلة "الدراسات الفلسطينية"، العدد ٩١ (صيف ٢٠١٢)، ص ١٤٦-١٥٢.
- ٢٤ موقع قناة "الجزيرة" الإلكتروني، ٢٠١٢/٥/١٦.
- ٢٥ محمود درويش، قصيدة "فكر بغيرك" في ديوان "كزهر اللوز أو أبعد" (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥)، ص ١٥-١٦.
- ٢٦ محمود درويش، ديوان "حالة حصار" (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢)، ص ١٠.
- ٢٧ المصدر نفسه، ص ٥٨.
- ٢٨ المصدر نفسه، ص ٨١.
- ٢٩ نزار قباني، قصيدة "قارئة الفنجان" من ديوان "قصائد وحشية"، في "الأعمال الشعرية الكاملة" (بيروت: منشورات نزار قباني، ١٩٩٨).
- ٣٠ جون برغر، "وقت أغنية"، مجلة "بدايات"، العدد ١ (شتاء / ربيع ٢٠١٢)، ص ٩٩.
- ٣١ محسن بوعزيزي، "شعارات الثورة التونسية: لغة الحرية والكلمة . الفعل"، مجلة "بدايات"، العدد ١ (شتاء / ربيع ٢٠١٢).
- ٣٢ حنة أرندت، "رأي في الثورة"، ترجمة خيرى حمّاد، مجلة "فصول" المصرية، العدد ٨٠ (شتاء ٢٠١٢)، ص ١٧٥-٢٢٥.
- ٣٣ محمود درويش، قصيدة "وعود من العاصفة"، ديوان "آخر الليل" (بيروت: دار العودة، [١٩٦٧])، ص ١٩.